ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

التضامن بين المغاربة
من خلال وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤م

خالد صقلي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
ظهر المهراز - فاس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

إن التضامن راسخ في الهوية الاسلامية المغربية، وقد شكلت وثيقة المطالبة بالاستقلال نموذجًا حيًا للحراك السياسي الذي خلقه المغاربة بتفاعلاتهم وتمازجهم واتحادهم تتويجًا لمساراتهم النضالية. وإن القراءة في حدث تقديم الوثيقة وما تمخض عنه من خلخلة للسياسة الاستعمارية-التي اعترفت أن المغاربة يحافظون على أصولهم وثوابتهم وتضامنهم ووحدتهم بجانب ترسيخ مقوماتهم الحضارية - في الهيمنة والاستغلال، علاوة على ما اعطته المقاومة المغربية المتنوعة والشاملة من دروس في التضحية والتضامن والتكامل ليساهم بكل تأكيد إلى جانب العمل والعلم في خلق تنمية المجتمع وضمان الحفاظ على صمام الأمان في درأ كل عدوان خارجي يستهدف البلاد والعباد. إن هدفي من هذا العمل نابع بالأساس من اهتمامي العلمي بالتاريخ المغربي وحضارته وتحقيق الانتاجات الفكرية المخطوطة لعلمائه ومتصوفته، وإعادة الامجاد لرواد صنعوا هذا التاريخ وكان لهم قدم السبق في دفع عجلة العلم والثقافة بالمغرب.

بيانات المقال:
تاريخ استلام المقال: ٢٥ يونيو ٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر: ٢٨ أغسطس ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
الحركة الوطنية المغربية، المقاومة المغربية، وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤، وثيقة الاستقلال، منزل مكوار

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0045089

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
خالد صقلي. "التضامن بين المغاربة من خلال وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤م".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السابع والثلاثون؛ سبتمبر ٢٠١٧. ص٧٣ – ٧٩.

مُقَدِّمَةٌ

إن إحياء ذكرى ١١ يناير ١٩٤٤ يندرج ضمن مبدأ عام وهو جعل تاريخ الأمة المغربية حيًا في النفوس، وإحياء هذه الذكرى هو تقديم المثال للذين أخلصوا لهذه الأمة، وبذلوا الغالي والنفيس من أجل عزتها ورفعة شأنها، وهو كذلك اعتناء وحفظ لأصالة أمتنا ووفاء للتاريخ وأداء للأمانة في أعناقنا، وهذا يتفق مع روح ونصوص وأهداف القرآن الكريم، إذ نجد آياته الكريمة تحدثنا عن الأمم السابقة حتى يتفكر فيها الناس وحتى يأخذوا منها العبرة والعظة:{(...) ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}،[1] ولعل من أهم القضايا التي يعتمد عليها في مفهوم التاريخ المعاصر هذا المسار الخطي لأحداث التاريخ، وهذا يعني عدم تكرار تلك الأحداث عبر التاريخ لأن الذي يمضي لا يعود، وهذا يعطي القيمة والأهمية التاريخية المتفردة لكل حدث تاريخي لأنه لا يتكرر، فالتاريخ لا يعيد نفسه بدليل قوله سبحانه وتعالى: {كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ}[2] لذلك فإن قراءتنا لأحداث ذكرى وثيقة الاستقلال هي قراءة في الواقعية التاريخية المغربية المتفردة والمنغرسة الجذور في ذاكرتنا الوطنية.[3]

أولاً: الوضعية في المغرب قبل تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال

إن الحديث هنا يأخذنا للوقوف عند مرحلة مهمة من تاريخ المغرب المعاصر، والمتمثلة في تقديم وثيقة الاستقلال في ١١ يناير ١٩٤٤، وهو الأمر الذي يستوجب بالضرورة أخذ فكرة عن حالة المغرب آنذاك. فقد عملت جميع القوى الأوربية على إضعاف البلاد

ونخر جسدها عن طريق الاتفاقيات الثنائية والمساومات الدبلوماسية التي عقدتها فرنسا مع مختلف منافسيها، ابتداءً من بداية القرن العشرين مرورًا بمؤتمر الجزيرة الخضراء في العام ١٩٠٦، حيث تم فيها إطلاق يد كل من فرنسا وإسبانيا للتحكم في مصير المغرب. بعد أن تمت قنبلة مدينة الدار البيضاء واحتلال وجدة في العام ١٩٠٧ .

لقد شكل فرض توقيع عقد الحماية على السلطان مولاي عبد الحفيظ في ٣٠ مارس ١٩١٢، نهاية مرحلة طويلة من تاريخ المغرب المستقل، لأنه دخل مرحلة لم تكن هزيمة في معركة أو حرب أو احتلال ثغر، بل مرحلة فقدان استقلال البلاد كلها، وقد ولد هذا الإحساس لدى المغاربة، شعورًا قويًا بالانتماء إلى هذا الوطن فهبت كل شرائح المجتمع المغربي قاطبة للمقاومة، اذ قدم الشيخ ماء العينين بالصحراء المغربية وموحا أو حمو الزياني وباسلام بالأطلس المتوسط في معركة الهري عام ١٩١٤ وعبد الكريم الخطابي في معركة أنوال عام ١٩٢١ بالريف[٤]، أعظم صور من صور المقاومة المغربية الشريفة التي أعطت دروسا بليغة في معنى التشبث بالوطن، وقد استمرت تلك المقاومة المسلحة في مجموع التراب المغربي من جبال الريف في الشمال والأطلس المتوسط والأطلس الكبير، التي استمرت فيه المقاومة إلى حدود ١٩٣٥ وناحية تافيلالت والصحراء المغربية، وقد واكب هذه المقاومة، انتفاضات وإضرابات داخل المدن كالرباط وسلا والجديدة والصويرة في العام ١٩٢٠.

لقد عرفت فترة منتصف عشرينات القرن الماضي نشأة الحركة الوطنية، والتي تبلورت كحركة في بداية الثلاثينيات واكب ذلك تطور في طرق عملها وفي مطالبها، وقد ساهمت مساهمة فعالة في تحقيق المغرب لاستقلاله، وقد تكونت الحركة الوطنية في البداية من شباب مغاربة متحمسين من مختلف المناطق المغربية، درس بعضهم في المدارس المغربية كجامعة القرويين، والبعض الآخر في جامعات غربية. واتسمت الوضعية السياسية بالمغرب والتي أفرزت تأسيس الحركة الوطنية بتراجع المقاومة المسلحة، والاستغلال الاستعماري البشع للمغرب وأثره على المجتمع المغربي، وظهور الحركة السلفية ودورها في تأطير الحركة الوطنية، باعتبارها نهضة فكرية عملت على تحرير العقل المغربي من التخلف الفكري وسيطرة الخرافة والعودة إلى المنابع والأصول الأولى للدين الإسلامي الحنيف، وكان من بين روادها محمد بن العربي العلوي (١٨٨٠-١٩٦٤)، وأبو شعيب الدكالي(١٨٧٨-١٩٣٧)، وقد كان دور الحركة السلفية كبيرًا في زرع دم جديد لدى المغاربة بمختلف شعابهم، بعد الانكسارات التي منيت بها المقاومة المغربية خصوصًا في الأطلس والريف.

فقد أعادت لهم هذه الحركة الثقة بالنفس باعتبار أن الإسلام هو المنبع الأصيل الذي نهل منه المغاربة قاطبة قدرتهم على مواجهة التحديات التي كانت تجابههم عبر التاريخ، وفي هذا الاطار يقول علال الفاسي: "ليس من الممكن لمؤرخ الحركة الاستقلالية في المغرب أن يتجاهل هذه المرحلة العظيمة ذات الاثر الفعال في تطوير العقلية الشعبية ببلادنا".[٥] إضافة إلى الظهير البربري الذي تم إصداره من قبل سلطات الحماية يوم ١٦ مايو١٩٣٠، والذي كان يهدف إلى التفريق بين المغاربة وذلك بخلق شرخ بينهم في محاولة لضرب وتفتيت أسس وحدة المغاربة التي تشبثوا بها منذ قرون خلت، لكن المغاربة بربرًا وعربًا... افشلوه باتحادهم وتضامنهم، ويتبين ذلك لنا بوضح من خلال ما رد في الكتابات الوطنية التي أرخت للحدث، وفي هذا الإطار يقول عبد الكريم غلاب: "... عاد معنى الأمة الواحدة والشعب الواحد ليحتل تفكير الطبقة المتحركة في البلاد من مثقفين وطلبة وتجار وصناع، ولأول مرة في التاريخ – بعد الدعوة الاسلامية - توحد حركة وطنية فكرية الأمة، وتبعث الوحدة الوطنية لا بالقوة والسيف كما كان الامر شعار الحكم الذي يواجه القبائل الثائرة، ولكن بالفكرة الوطنية وبذلك حل الوطن مكان القبيلة وحلت الوطنية مكان العرف، ولأول مرة تجرا الوطنيون ليقوموا بعمل جماعي ضد الادارة الفرنسية وليواجهوها بالعصيان والمظاهرة والاضراب في مدن مقفلة مطوقة، ولأول مرة تلتقي الجماعات العاملة في المدن حول فكرة واحدة تجهر بها وكأنها اكتشفت ما كانت تبحث عنه طول مدة التعبئة النفسية التي كان يشعر بها الشباب في المدن اثناء العشرينات(...)".[٦]

لقد عمل المغاربة جميعهم على التصدي لهذا الظهير في كتلة واحدة فجهروا باللطيف في صيغته المعروفة: "اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير وألا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر". بداية في مدينة سلا لتنطلق المظاهرات والاحتجاجات إلى باقي المدن والقرى المغربية التي خرجت لتعبر عن الوحدة الوطنية المغربية، فتكون وفد سافر في ٢٦ غشت ١٩٣٠ إلى الرباط حاملاً معه مجموعة من المطالب. وقد تم استقباله من قبل السلطان سيدي محمد بن يوسف طيب الله ثراه، الذي عبر عن أسفه ودعمه لجميع مطالب الشعب المغربي. وهكذا اعتبرت الحركة البربرية بداية النهاية للاستعمار بالمغرب، كما انها كانت دعامة للحركة الوطنية لتتخذ شكلها النهائي كحركة سياسية تستند على قاعدة شعبية متحدة متضامنة قادرة على الوقوف وجها لوجه ضد الاستعمار ومواصلة عملها.[٧]

وعمومًا فقد كان للظهير البربري، دور مهم في جمع شمل المغاربة واتحادهم وتضامنهم، وأعطى صورة نموذجية من صور التلاحم والتضامن المغربي، فكان ذلك الدرس بمثابة إنذار لسلطات الحماية التي زادت من قوتها القمعية، خصوصًا أنها كانت تدرك أن مطالبة المغاربة بالإصلاحات لم تكن سوى بداية للمطالبة بالاستقلال، علمًا أن رواد الحركة الوطنية بدأوا في ٨ مايو1934،

بالاتصال بالسلطان للتنسيق معه، خصوصًا أن دورهم كان مهمًا في الاحتفال بأول عيد عرش في تاريخ المغرب في ١٨ نونبر ١٩٣٣. ولا يمكن نسيان ما قام بها المغاربة في الشمال من ردود فعل قوية تبلورت في عمل سياسي ضد الاستعمار الإسباني،[٨] وزاد ذلك من التمازج والانسجام والاتحاد بين شمال المغرب وجنوبه، وبين جميع شرائح الشعب المغربي. حيث عملت الكتلة الوطنية على تقديم عريضة لحكومة الجمهورية الإسبانية، ضمنتها مجموعة من المطالب، لكن الجمهوريين الذين كانوا قد وصلوا إلى الحكم آنذاك ولكنهم ردوا على تلك المطالب المغربية بالعنف، خصوصًا في مدينة تطوان.

إن النضج الذي وصلت إليه الحركة الوطنية المغربية عبر مجموع التراب الوطني دفع المغاربة عامة بكل مشاربهم بالانتقال من مجرد المطالبة بالإصلاحات إلى المطالبة بالاستقلال، حيث ساهمت مجموعة من الظروف المؤثرة في تطوير تلك المطالب والتي يمكن تلخيصها في:

- تعرض بعض قادة الحركة الوطنية في نهاية الثلاثينات للاعتقال أو النفي، وخاصةً بعد أحداث بوفكران سنة١٩٣٧ والتي نتجت عن تحويل المعمرين لمياه النهر لأراضيهم .
- تأسيس أحزاب جديدة منها حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال و"حزب الوحدة المغربية" و"حزب الإصلاح الوطني" و"الحزب الشيوعي"، كما تم إصدار العديد من الجرائد والمجلات أبرزها: جريدة "عمل الشعب" والتي كان يديرها الوزاني و"المغرب" لأحمد بلافريج و"الحياة " للطريس...، فضلاً عن إنشاء المدارس الحرة وتأسيس الجمعيات الثقافية والعلمية.[٩]
- عقد لقاء آنفا في يناير١٩٤٣، الذي كان فرصة للقاء بين السلطان سيدي محمد بن يوسف والرئيس الأمريكي روزفلت حيث عرض السلطان مطالب المغرب المشروعة .
- تقديم أعضاء الحركة الوطنية وثيقة يوم ١١ يناير١٩٤٤، التي طالبوا فيها باستقلال المغرب ووحدة ترابه، علمًا أن السلطان سيدي محمد بن يوسف كان مطلعا على مضامين الوثيقة، بعد الاتصالات السرية التي كانت بينه وبين الوطنيين، وقد عبر جلالته عن حماسه وموافقته عليها، وتم تحديد موعد تقديمها صباح يوم ١١ يناير ١٩٤٤. وكان رد سلطات الحماية الفرنسية بشن حملة اعتقالات بعد أيام من تقديم الوثيقة.[١٠]

هكذا إذا مُهدت الطريق أمام حزب الاستقلال، لتقديم "عريضة المطالبة بالاستقلال" يوم ١١ يناير ١٩٤٤، بعد عشر سنوات من تقديم "مطالب الشعب المغربي"، لتكرس هذه الوثيقة التاريخية نهج المساواة بآفاقها وملامحها لا محدودة ومبدأ التضامن بين العرش والشعب، والشعب فيما بينه، وظل التأكيد قائمًا في كل وقت على أنه لا فرق بين المغاربة وذلك مرتبط بعقلية المغاربة المترسخة في وحدته وكينونته واتحاده وتضامنه من شماله لجنوبه ومن شرقه إلى غربه.

ثانيًا: تقديم الوثيقة

إنها محطة تاريخية من تاريخ المغرب الحديث، تلك التي جسدت على أرض الواقع طموحات جيل الحركة الوطنية الذي توج نضاله بـ "وثيقة المطالبة بالاستقلال "التي قدمت يوم الثلاثاء ١٤ محرم (١٣٦٣هـ/١١ يناير ١٩٤٤) على الشكل التالي:

- وفد قدم الوثيقة إلى السلطان جلالة المغفور له محمد الخامس "طيب الله ثراه" هم السادة: أحمد بلا فريج، ومحمد اليزيدي، وعبد العزيز بن ادريس، والهاشمي الفيلالي، وعبد الله إبراهيم، وإدريس المحمدي، وعبد الكريم بنجلون، وأحمد الحمياني، وعبد الحميد الزموري.[١١]
- وفد قدم الوثيقة إلى القنصلية الأمريكية هم السادة: المهدي بنبركة،[١٢] وعبد الرحيم بو عبيد.[١٣]
- وفد قدم الوثيقة إلى المقيم العام الفرنسي وهم السادة: الحاج عمر بن عبد الجليل، ومحمد غازي، ومحمد الزغاري،[١٤] ومحمد الديوري.[١٥]
- وفد قدم الوثيقة إلى القنصلية الإنجليزية وهم: الحاج أحمد مكوار، وأحمد باحنيني.[١٦]

وكما لا يخفى على أحد، فقد حررت الوثيقة في بيت الحاج محمد مكوار بفاس، وهندس انشاءها محمد اليزيدي وأحمد بلافريج، ووقعها ستة وستون شخصية وطنية مغربية كانت منتمية لمختلف الأوساط الاجتماعية، فمنهم الموظفون مع المخزن والعلماء والأطباء والمحامون والأساتذة والإداريون والتجار والصناع والحرفيين... ومثلوا (١٤) مدينة مغربية. وفي هذا الإطار ورد في إحدى الصحف المغربية: "بين ردهاته حرروا عقدا أعلنوا فيه حبهم الكبير لوطنهم الذي لا يقاس بثمن ولم يفرطوا في أي شبر منه. وأطلقوا وثيقة طالبوا فيها باستقلال المغرب ووحدة ترابه تحت ظل صاحب الجلالة ملك البلاد المرحوم محمد بن يوسف، الذي التمسوا منه السعي لدى الدول التي يهمها الأمر الاعتراف بهذا البلد .وثيقة ومنزل يشهدان على منعرج رائد في تحديد السيادة المغربية، وإعطاء انطلاقة إصلاح ترقبه المغاربة من داخل وطنهم دون حاجة إلى مستعمر نهب الأرض واستعبد العباد، اختاره موقعو العريضة، أن يكون نظامًا سياسيًا شوريًا شبيهًا بنظام الحكم في البلاد العربية الإسلامية في الشرق . نظام توخى موقعو العريضة ممَنْ سعوا إلى تمتع الدولة المغربية بحريتها وسيادتها الوطنية، (توخوا) أن يحفظ حقوق سائر عناصر الشعب المغربي وطبقاته، ويحدد واجبات الجميع، بغض النظر عن

تداعيات القرار السياسي الجريء الذي أعلنه أكثر من(60) وطنيًا وقع العريضة في منزل أحمد مكوار.

تلك العريضة التي انطلقت شرارتها من هذا المنزل الواقع في موقع استراتيجي قرب ساحة البطحاء، تعززت بعرائض التأييد من مختلف جهات الوطن التي من آثارها اندلاع انتفاضة ٢٩ يناير ١٩٤٤ وما رافقها من مظاهرات عارمة سقط إثرها عشرات الشهداء والضحايا بالرباط وفاس وأزرو وسلا . لم يقتصر إشعاع وثيقة المطالبة بالاستقلال التي تعتبر مليكة الفاسي المرأة المغربية الوحيدة التي وقعتها، على الوطن بما كان لها من أثر عميق في نفوس وأوساط المغاربة على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم، بل أرسلت نسخ منها إلى ممثليات الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا والاتحاد السوفياتي .إن غالبية الموقعين على وثيقة المطالبة بالاستقلال، كانوا يمتهنون التجارة بالمدينة العتيقة بفاس، ممَنْ لم يستسيغوا الحريق الانتقامي الذي طال مصدر عيشهم، بمتاجر قيسارية الكفاح في سنة ١٩٥٥ الذي أدى إلى تشريد أسر العشرات من المقاومين وموقعي وثيقة المطالبة بالاستقلال .هذا الحريق كان مصدرا لتأجيج غضب الوطنيين المغاربة، ممن اجتمع بعضهم في منزل مكوار لتحرير وتوقيع الوثيقة المذكورة، ردًا على ما تعرضوا إليه من استمرار نهب وإقبار ودفن معالم تاريخ الوطن، على غرار اجتماعات تنسيقية أخرى احتضنتها منازل ومحلات تجارية أخرى، لم تنل حظها من الاهتمام".[١٧]

وقد ركزت هذه الوثيقة على مجموعة من المرتكزات نذكر منها :

- استقلال المغرب في ظل الوحدة الترابية للمملكة.
- إرساء ملكية دستورية وديمقراطية، تضمن الحريات الفردية والجماعية.
- المساهمة في الحياة الدولية بشكل يحترم سيادة المغرب.
- إحداث نظام سياسي شورى شبيه بنظام الحكم في البلاد العربية والإسلامية في الشرق، تحفظ فيه حقوق وواجبات جميع عناصر الشعب المغربي.
- الدفاع عن الوحدة الاجتماعية والعقدية للمغاربة لإفشال كل المخططات الاستعمارية .

وإن القراءة الأولية في وثيقة المطالبة بالاستقلال التي قدمت في يوم ١٤ محرم ١٣٦٣هـ/١١ يناير ١٩٤٤م تبرز لنا مجموعة من الملاحظات نذكر منها فقط:

- الملاحظة الأولى: إن الوثيقة قدمها عدد من أعضاء حزب الاستقلال كما ورد في أول جملة من تصدير الوثيقة: "إن حزب الاستقلال الذي يضم أعضاء الحزب الوطني السابق وشخصيات حرة(....)"، وكذلك جملة وردت في ديباجة الوثيقة: "(...)عن فروع حزب الاستقلال بسائر نواحي المغرب".
- الملاحظة الثانية: الوثيقة ضمت توقيع امراة مغربية واحدة هي مليكة الفاسي زوجة الأستاذ محمد الفاسي.[١٨]
- الملاحظة الثالثة: إن الأعضاء الموقعين على الوثيقة هم من جلّ المدن المغربية وهي كما يلي:

المدينة اوالقرية	عدد الموقعين حسب عبد السلام البكاري[١٩]	عدد الموقعين حسب أبوبكر القادري[٢٠]
فاس	٢٧	٢٣
الرباط	١١	١١
سلا	٦	٧
مكناس	٥	٦
مراكش	٤	٥
الخميسات	٣	٣
اسفي	٣	٣
قرية اولاد جامع	١	ـــ
سيدي قاسم	١	١
مدينة ابن احمد	١	ـــ
وجدة	١	١
سطات	١	ـــ
القنيطرة	١	٤
مانشستر في انجلترا	١	ـــ
الدار البيضاء	ـــ	٢
المجموع	**مجموع الموقعين (٦٦) ينوبون عن (١٤) مدينة مغربية**	**مجموع الموقعين (٦٦) ينوبون عن (١١) مدينة مغربية**

إن هذه الوثيقة حسب العديد من الدارسين والباحثين جاءت مؤكدة في ديباجتها على استقلال المغرب والوحدة الترابية للمملكة، وإرساء ملكية دستورية وديمقراطية، وتطبيق سياسة إصلاحية حقيقية في كافة الميادين تضمن الحريات الفردية والجماعية، والمساهمة في الحياة الدولية عبر توقيع اتفاقيات مع الدول تضمن السيادة المغربية سياسيًا واقتصاديًا . إن هذا الحراك الذي عاشه الشعب المغربي في هذه الفترة لم يكن سوى تتويجًا لمسارات كفاحية تحررية، متنوعة ومتجددة، أشعلتها أضواء مقاومة في كل ربوع الوطن. وإن التاريخ السياسي المغربي كتاب مفتوح على قراءات لا تنتهي وبتعدد زوايا القراءة والتفاعل، تتعدد العبر والدروس. وإن هذه الفترة المهمة من تاريخنا السياسي والاجتماعي لا زالت تطالبنا بالبحث العميق والتنقيب عن الحقائق، ولا زالت تحثنا لاستخلاص المبادئ من التاريخ الدياليكتيكي،[٢١] وضمنيًا تدفعنا لطرح عدة تساؤلات من بينها مسألة التضامن بين المغاربة والعرش والمغاربة فيما بينهم.

١/٢- ردود الفعل الرسمية والشعبية على تقديم الوثيقة :

لقيت الوثيقة تجاوبًا كبيرًا وتلقائيًا معها بحكم تعطش المغاربة عامة بكل مشاربهم وطبقاتهم لنيل سيادتهم على بلادهم والظفر بثرواتهم خاصةً في ظل معاناتهم من بطش وجشع الاستعمار الذي كان همه الوحيد هو الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من الثروات وسحق أي محاولة تنم عن الرغبة في الاستقلال من خلال التضييق على الحقوق والحريات والتجمعات، وأيضًا محاصرة النخبة المغربية التي كانت تتنامى كل يوم . وما من شك في أن إعلان وثيقة المطالبة بالاستقلال كان تعبيرًا عن الرغبة التي يحس بها الشعب المغربي قاطبة، وقد تقبلها المغاربة رسميًا وشعبيًا وأيدوها بعرائض أخرى مماثلة وقعتها جميع الفئات والأجناس في اتحاد وتضامن تام، إذ كان خطوة تقديم الوثيقة بمثابة جمع شمل المغاربة وتوحيد كلمتهم وصفهم. وعن هذا التأييد يقول علال الفاسي كنموذج لرجال الحركة الوطنية ما نصه: "توالت الوفود الشعبية من كل نواحي المغرب ترفع لجلالة الملك عرائض التأييد لطلب الاستقلال المرفوع من الحزب، وقد شارك في هذا التأييد من كل الطبقات الاجتماعية ومن أكبر قضاة الشرع الإسلامي إلى أبسط رجال البوليس السري الذين لم تمنعهم ظروفهم من الاشتراك في هذا التضامن الشعبي العام، وعمت البلاد نشوة الحديث عن الاستقلال واليوم الذي يحتفل فيه بإنجازه"،[٢٢] فقد آمن قادة الحزب بأنهم قاموا بخطوة تاريخية إذا لم تتحقق نتائجها في الحين فقد تتحقق بعد نهاية الحرب.[٢٣]

كما تم تأييد عريضة ١٩٤٤ حسب الأستاذ عبد الله الجيراري من طرف أعضاء المجلس العلمي بفاس الذين حملوا عريضة الاستقلال إلى السلطان جلالة المغفور له محمد الخامس بحضور قضاة فاس وعدولها منهم محمد بن عبد السلام السائح الرباطي وإسماعيل الإدريسي،[٢٤] ولم تبد المنطقة الخليفية أي تردد في تأييد الفكرة، وتجسد هذا التأييد وروح التضامن بوضوح في الرسالة التي وجهها حزب الاصلاح الوطني إلى جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه وذلك في ٢٩ فبراير ومما جاء فيها: "مولانا لقد اطلعنا على القرارات السامية التي رفعتها إلى جلالتكم تلك النخبة الطاهرة من المغاربة الاقحاح والوطنيين المجاهدين الأبرار هيأة حزب الاستقلال المغربي، وإنها لمطالب الامة بأكملها والشعب بأجمعه، لا يعارضها ولا يخرج عنها مَنْ نزع من قلبه الإيمان وأودع فيه الكفر والشقاق والخيانة والنفاق، وأن حزب الاستقلال اذ يرفع الصوت اليوم ويرسلها صرخة داوية في الافاق فإنما يرفعها بذلك باسم المغرب عاليًا بين الامم الحية والشعوب اليقظة، ويثبت للعالم أن المغاربة أحرار لا يرضون بالذل والاستعباد ولا يصبرون على الضيم ولا يستكينون ولا يستسلمون لقوة الحديد والنار".[٢٥]

إذن فالوثيقة لقيت تأييدًا شاملاً وتضامنًا تامًا من طرف المغاربة على مختلف مستواهم الطبقي والفكري.

٢/٢- ردود فعل المستعمر:

لقد شكلت وثيقة المطالبة بالاستقلال صدمة قوية للإقامة العامة وبرز ذلك بشكل جلي وقوي من خلال محاصرتها للموقعين على وثيقة المطالبة بالاستقلال واعتقالهم بمعية أهم القيادات السياسية والحزبية والحقوقية بتهم واهية كالإعداد لانتفاضة مسلحة في المغرب،[٢٦] وأثر هذه الاعتقالات بدأت المظاهرات في مختلف المدن والقرى المغربية، فأغلقت المدارس وجامع القرويين والثانويات الإسلامية أبوابها، تم اعتقال المئات من هؤلاء المتظاهرين وصدور أحكام بإدانتهم. وهكذا سيشكل فيما بعد الموقعون على وثيقة المطالبة بالاستقلال رموزًا للكفاح والنضال من أجل نيل الاستقلال ورموزًا للمغرب الحر، ورجال الغد الذين سيعتمد عليهم في قيادة وبناء المغرب الجديد . فقد اتضح للإقامة العامة الفرنسية أن هناك إجماعًا كليًا وتأييدًا قويًا، وتضامنًا رسميًا وشعبيًا على المطالبة بالاستقلال.

خَاتِمَةٌ

وصفوة القول؛ أن وثيقة المطالبة بالاستقلال في مقصديتها وتوجهها يجب التعامل معها باعتبارها نصًا ثمينًا وفريدًا في الفكر المغربي الحديث والمعاصر، لأنها تعكس وعي النخبة السياسية الوطنية المغربية في مرحلة هامة من مراحل تطورها، وقد صيغت في شكل وثيقة لا مذكرة، فكرتها المحورية تنص على ثلاث مطالب: الاستقلال، الوحدة، والدستور.[٢٧] وتعتبر هذه الوثيقة نقطة تحول بارزة في تاريخ كفاح الشعب المغربي ونضاله المستميت من أجل نقل المغرب من دولة محمية إلى دولة ذات سيادة، تتمتع باستقلالها وحريتها ووحدتها.

إن التضامن الذي عرفه المجتمع المغربي والذي تجلى في هذا الحراك الذي عاشته كل فئات المجتمع المغربي في هذه الفترة والذي لم يكن سوى تتويجًا لمسارات كفاحية تحررية، متنوعة ومتجددة، اشعلتها أضواء مقاومة. وإذ يحتفل الشعب المغربي بهذه الذكرى، فللتعريف بمضامين الحركة الوطنية وأعلامها وأمجاد الأمة المغربية وتاريخها النضالي المجيد، حفاظًا على الذاكرة الوطنية وتذكيرًا للأجيال بضرورة قدسية وحدتنا، وضرورة تضامننا واتحادنا، والحفاظ على تراثنا، والإشادة بأبطاله من أجل الاقتداء بهم للدفاع عن المقدسات الدينية والوطنية للبلاد، ومواصلة الكفاح من أجل تحقيق الوحدة الترابية لوطننا.

وان ما أنتجته هذه المرحلة المهمة من تاريخ المغرب من ممارسة مقاوماتية وسياسية وفكرية وثقافية ونضالية، لازالت تحتاج إلى تأطير زمني وفكري للمرحلة الكلونيالية بصداماتها وإصلاحاتها واحتكاك نظام وبنيات تقليدية مع حضارة غربية متميزة بأدواتها وبنظرتها للمجتمعات الغيرية. وإن هذه الفترة من عمر مغربنا ما زالت تطالبنا بتحريرها من العصبية، وما زالت تحفزنا لاستخلاص بعض المبادئ من التاريخ المغربي، وضمنيًا: طرح مسألة التضامن والتعايش والتلاحم بين فئات المجتمع المغربي من خلال وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤ على اعتبار أن هذه الوثيقة شكلت نقطة تحول في تاريخ المغرب السياسي والاجتماعي. وأختم هذ المقال بذكر مقولة لأستاذنا المرحوم سيدي محمد زنيبر: "(...) وأن الحركة الوطنية هي تراثنا جميعًا من حقنا أن نهتم به كلنا وندافع عنه(...)".[٢٨]

الهَوامِشُ:

(١) **سورة الأعراف**، الآية: ١٧٦.

(٢) **سورة يس**، الآية: ٣٠.

(٣) انظر: عبد الله هيتوت، **في ذكرى تقديم وثيقة الاستقلال**، ميثاق الرابطة، العدد٣٢،٤/١/٢٠١١.-"الذكرى الـ٦٥ لتقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال" نشر في جريدة العلم (المغربية) ١٢ - ٠١ – ٢٠٠٩.

(٤) انظر: جرمان عياش، **أصول حرب الريف**، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٢.- محمد العلمي، **زعيم الريف محمد عبد الكريم الخطابي**، نشر الشركة العالمية للكتاب، ١٩٠٠.

(٥) انظر: علال الفاسي، **الحركات الاستقلالية بالمغرب العربي**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٩٢، ص١٥٣.

(٦) انظر: عبد الكريم غلاب، **تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية حتى إعلان الاستقلال**، مطبعة النشر، البيضاء، ج١، ص١٩٤-١٩٥.

(٧) انظر: الحاج الحسن بوعياد، **الحركة الوطنية والظهير البربري لون أخر من نشاط الحركة الوطنية**، الدار البيضاء، ١٩٧٩، ص١٣-١٦ وما بعدها.

(٨) انظر: ميكل مارتن، **الاستعمار الاسباني في المغرب**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٨٨.

(٩) انظر: عبد الكريم غلاب، **تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية حتى اعلان الاستقلال**، م.س،ج١، ص٣٥.

(١٠) انظر: محمد السلوي أبو عزام، **المقاومة والوجدان: عن الشعب والذات**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٩٠، ص١٨ وما بعدها.

(١١) انظر: عبد الحق المريني، **محمد الخامس**، الرباط، ١٩٨٨، ص١٩٦-١٩٨. رشيد ملين محمد، **نضال ملك**، المطبعة الملكية، الرباط، ط٢، ص٢٥٢. – محمد بن يوسف، **تاريخ استقلال المغرب**، دار الكتاب، الرباط، ١٩٧٥، ص١٣٥. – أبو بكر القادري، **مذكراتي في الحركة المغربية**، ج٢، ص١٨٣.

(١٢) كان رئيس جمعية قدماء تلامذة كوليج مولاي يوسف بالرباط، وقد وأورد أبو بكر القادري أنه كانت هناك ثلاث وفود فقط وتراس الوفد الثالث المهدي بن بركة الذي قدم الوثيقة إلى قنصل إنجلترا وقنصل الولايات المتحدة الأمريكية في الرباط، وانظر: أبو بكر القادري، **مذكراتي في الحركة الوطنية**، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٧، ج٢، ص١٨١- ١٨٦.

(١٣) انظر: وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤، عبد السلام البكاري، البوكيلي للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٥، ص٣٤١.

(١٤) الذي كان رئيسًا لجمعية قدماء تلامذة ثانوية مولاي إدريس بفاس، وانظر: أبو بكر القادري، **مذكراتي في الحركة الوطنية**، ج٢، ص١٨١-١٨٥.

(١٥) انظر: عبد السلام البكاري، م.س، ص٣٤١.

(١٦) انظر: محمد خليل بوخريص، **وثيقة التحدي**، دار الثقافة، البيضاء، ١٩٩٥، ص١٣١. عبد الكريم غلاب، **تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب**، م.س، ص٢٧٦-٢٧٧.

(١٧) لقد قامت الجهات المعنية المغربية بتحويل هذا المنزل، إلى متحف للمقاومة وجيش التحرير، اعتبارًا للدور الذي لعبه مالكه في إخراج الوثيقة إلى حيز الوجود وتوقيعها من قبل ثلة من الوطنيين ممن

غادر غالبيتهم إلى دار البقاء، تاركين وراءهم بصمة تاريخية مهمة سيذكرهم بها جميع المغاربة وكل الأجيال ورغم المشكلات والعراقيل التي تقف حجر عثرة في وجه إخراج مشروع متحف المقاومة إلى الوجود. لكن هذا المنزل الحامل لرقم ٤ بالزنقة المذكورة، قيد رسميًا في عداد الآثار، اعتبارًا لكونه شهد توقيع وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤، باعتبارها منعطفًا مهمًا في تاريخ الحركة الوطنية من أجل استقلال المغرب وفي ٨ يناير ٢٠٠٧ تقدم المندوب السامي لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، بطلب لتقييد المنزل ضمن الآثار، ما استجيب إليه ونشر في الجريدة الرسمية . وانظر جريدة الصباح (المغربية)، "منزل مكوار بفاس شاهد عصر على وثيقة الاستقلال"، الاثنين, ١٤ يناير ٢٠١٣.

(١٨) انظر: ادريس ابايا، "**وثيقة الاستقلال -عهد وفاء- بين ملك مخلص لوطنه وحزب قام بواجبه**"، جريدة العلم المغربية، ١٤-٢- ٢٠١١.

(١٩) انظر: وثيقة ١١ يناير١٩٤٤،م.س، ص٢٣٧-٢٣٨.

(٢٠) انظر: مذكراتي في الحركة الوطنية، ج٢،م.س، ص١٩٠.

(٢١) **ديالكتيك في الفلسفة الكلاسيكية** هو الجدل أو المحاورة وتبادل الحجج والجدال بين طرفين دفاعًا عن وجهة نظر معينة. ويعتبر الديالكتيك الأساس الذي تبنى عليه الشيوعية بمعنى الجدل الذي يوصل إلى النظريات والقواعد التي تحكم الناس وتسير حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية (أي الحاجة لمصدر). والمادية الديالكتيكية هي النظرة العالمية للحزب الماركسي اللينيني. وهي تدعى مادية ديالكتيكية لأن نهجها للظواهر الطبيعية، وأسلوبها في دراسة هذه الظواهر وتفهمها ديالكتيكي بينما تفسيرها للظواهر الطبيعية، وفكرتها عن هذه الظواهر، نظريتها مادية. والمادية التاريخية هي امتداد مبادئ المادية الديالكتيكية على دراسة الحياة الاجتماعية، تطبيق مبادئ المادية الديالكتيكية على ظواهر الحياة الاجتماعية وعلى دراسة المجتمع وتاريخه، والمادية التاريخية تأتي نظرية علمية حقًا في المجتمع وذلك تحديدًا لأنها تكشف عن الأساس الموضوعي المادي لمجمل الحياة الاجتماعية وتبين جوهر المجتمع البشري وتدرس قانونيات التاريخ العالمي... والديالكتيك عمومًا هو وحدة ونضال المتضادات عبر التاريخ؛ أي علم درس التناقضات في ماهية الأشياء نفسها.

(٢٢) انظر: علال الفاسي، **الحركات الاستقلالية في المغربي العربي**، م.س، ص٢٩٨.

(٢٣) انظر: عبد الكريم غلاب، **تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب**، م.س، ص٢٩١.

(٢٤) انظر: عبد الله الجراري، **شذرات تاريخية من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٠**، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٨٦، ص١٤٠.

(٢٥) انظر: محمد بن عزوز حكيم، **وثائق تشهد**، مطبعة الساحل الرباط، ١٩٨٠، ص١١١.

(٢٦) انظر: عبد السلام البكاري، م.س، ص٣٤١.

(٢٧) انظر: جماعة من الدارسين، **في النهضة والتراكم**، دار توبقال، ١٩٨٦، ص١٠٠.

(٢٨) انظر: **صفحات من الوطنية المغربية: من الثورة الريفية إلى الحركة الوطنية**، طبع دار النشر المغربية، ١٩٩٠، ص١٤٩.